الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة

الاستاذالدكتور مصطفى عوفي/ الاستاذة :زينب عمراني

جامعة باتنة، جامعة ورقلة، الجزائر

الملخص:

أردنا من خلال هذه المقالة تبيان العلاقة الموجودة بين الهوية الوطنية وتكنولوجيا الإعلام و الاتصال الحديثة، بعد ما تبين أن هذه الأخيرة يمكنها إحداث تأثيرات عميقة في مستعمليها أو مستخدميها، وذلك من خلال ارتباطهم بها كوسيلة أو كتقنية أو من خلال التعرض للمضامين التي تبثها أو تروج لها، كما أنها قادرة على التقليل من شأن المكان باعتباره وعاء للهوية الوطنية، اذ تجاوزت الحدود الوطنية للدول مثلما تجاوزت القيود التي تفرضها أجهزة الضبط و الرقابة في هذه الدول.

Résumé:

Cette intervention démontre la relation entre l'identité nationale et les nouvelles technologies de l'information et de la communication, car il est évident aujourd'hui que celui-ci peut avoir un profond impact sur ces utilisateurs, par le biais de leur attachement avec ces moyens comme des techniques ou par l'exposition aux contenus diffusés ou promus. En plus ces nouvelles technologies de l'information et de la communication sont capables de réduire au minimum la dignité de l'endroit comme un pot de l'identité nationale, ainsi elles dépassent les limites des États nationaux et les restrictions imposées par les dispositifs de commande et de contrôle dans ces pays.

مقدمة:

لقد شهد الإنسان مع التطور التكنولوجي المذهل لوسائل الإعلام والاتصال ثورة حقيقية، فاقت في إمكاناتها وأثارها ما حققه الإنسان من تقدم حضاري على مر العصور، ولقد نتج عن هذه الثورة تدفق هائل للمعلومات وأصبح العالم الواسع الأرجاء بفضل تكنولوجيا المعلومات قرية كونية صغيرة، يمكن لساكنيها متابعة ومعايشة الأحداث والوقائع الحاصلة في العالم الواسع من حولهم لحظة بلحظة.

فوسائل الإعلام والاتصال الحديثة استطاعت اجتياح جميع مجالات الحياة المعاصرة، بلا استثناء، ولن نكون مبالغين اذا قلنا أنها عصب حياة إنسان اليوم. ولم تكن هذه الوسائل الاتصالية لتبلغ هذه المكانة لولا التكنولوجيا العالية المستخدمة فيها، اذ دخلنا منذ فترة وجيزة مع هذه التقنيات الاتصالية الحديثة مرحلة جديدة تمثلت في مجتمع الإعلام والاتصال والمعلومات.

إلا انه لا يخفى علينا أن تكنولوجيا الاتصال هذه تعد حكرا على دول العالم المتقدم خاصة الأوروبية والأمريكية بالإضافة إلى الشركات المتعددة الجنسيات وبالتالي تدفق رسائل ومضامين ثقافية منها إلى الآخرين في اتجاه واحد، ما افرز جدلا واسع النطاق وأثار مسائل وإشكاليات عديدة، من أبرزها إشكالية الهوية والهوية الوطنية تحديدا، هذا الموضوع الذي أصبح يطرح على موائد النقاش أكثر من ذي قبل، ففي ظل التغيرات الحاصلة في شتى مناحي الحياة، وجد الفرد نفسه مجبرا على البحث المستمر عن هويات جديدة، كما انه لم يعد بمقدوره التمسك بهوية واحدة لفترة طويلة من الزمن، اذ تعمل زيادة التبادل بين بني البشر من مختلف الثقافات من خلال وسائل الاتصال المتعددة على زيادة التفاعل الوجاهي ما يزيد من المقابلة بين الذات والآخر وبالتالي الطرح المستمر لمشكلة الهويات وإعادة تعريفها.

لقد عملت وسائل الاتصال على توحيد جماهيرها محاولة التقليل من وطأة جغرافيا المكان والتعدد اللغوي والعرقي والديني والثقافي، إلا أن ما طرحته التطورات التكنولوجية الحديثة في مجال الاتصال من بدائل اتصالية، قد عملت على تمدد أساسي للإجراءات الأولى القائمة على احتواء المسافات والأمكنة الجغرافية، وفق أسس جديدة أتاحتها بما تتوفر عليه من مزايا غير مسبوقة اذ قربت المسافات لدرجة الغي فيها المكان الذي كان أساس كل أشكال التجمعات والتحالفات الإنسانية حيث لم يعد التفاعل على ارض واحدة هو الباعث الأول للتجمع بل أصبح يتم عبر التكنولوجيا ووسائط الاتصال والمعلومات.

ان تكنولوجيا الاتصال الحديثة تتيح للإنسان الانتقال من المحدود إلى اللامحدود، والمحدود هنا هو الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية صارمة وصماء، تحفظ كل ما يتصل بخصوصيتها وتفردها عن غيرها، أما اللامحدود فهو العالم بشتى أقطاره، حيث عملت تكنولوجيا الاتصال الحديثة على إعادة رسم الحدود والخرائط السياسية والثقافية، وأفرزت بذلك ثقافة متخطية للحدود عرفت في ظلها الهويات الوطنية أعتى أخطار الاندثار، وذلك بالنظر إلى أن التكنولوجيا الحديثة قادرة على فصل المكان عن الهوية واقتحام الحدود الثقافية و السياسية وإضعاف الشعور بالانتماء المحلي والوطني، وتعمل على تقويضه وإنتاج هويات غير متعلقة بالحيز المكاني وهويات تشعر بانتمائها ولو رمزيا إلى ذلك الفضاء اللامحدود. ما يطرح جملة من التساؤلات هي:

هل يمكن الحديث عن هوية وطنية في عصر تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة؟ وهل تموت الهوية الوطنية والقومية في زمن العولمة الإعلامية التي لا تعترف بالحدود والحواجز؟ وهل يمكن القول بأن هذه الوسائل بصدد خلق شكل جديد للهوية؟.

1. الهويـة: مفهومها ومكوناتها

1.1 مفهـوم الهويـة:

يعد موضوع الهوية موضوعا غامضا واضحا في نفس الآن، كما انه من المواضيع التي تلتقي وتتقاطع فيها عدة تخصصات علمية، كالسيكولوجيا، السوسيولوجيا، الأنثروبولوجيا وعلم السياسة، وبالتالي فان أمر تحديد التقاطع الموجود بين هذه الحدود يعد قضية شائكة. كما ان الباحث أو الدارس لدى تناوله للموضوع ينطلق من تخصصه العلمي وما يفرضه عليه من مناهج، وجهاز مفاهيمي وأطر نظرية، مايصعب اختزال موضوع الهوية في تخصص واحد ويجعل هذا التناول ضيقا ولا يلم بجميع حيثيات الموضوع وتشعباته، ويؤدي إلى طرح سؤال الهوية باستمرار.

وإذا تكلمنا عن الهوية كمصطلح، فإننا نجد انه مصطلح جديد الاستخدام في الدراسات الأكاديمية.

أ.تعريف الهويـة لغة:

اذ تعرف الهوية لغةً على أنها: تعني الذات والأصل والانتماء والمرجعية، وهي مأخوذة من كلمة "هو" أي جوهر الشيء وحقيقته، فهوية الشيء تعني ثوابته وأيضا مبادئه ويكفي طرح السؤال التالي لبيان ذلك: من أنا؟ من نحن من هو؟ وهكذا.

والهوية -كما يقول شريف الجرجاني صاحب كتاب "التعريفات"- هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق[1].

مع أن هذا التعريف يصبغ على الهوية صبغة دينية إلا انه يقبض على روح مفهوم الهوية."وفي المعجم الوجيز: الهوية تعني الذات والدلالة الذاتية للهوية تعني الإحساس بالانتماء إلى منظومة راسخة تعطي للفرد خصائص متفردة.وتقول الموسوعة الفلسفية العربية أن كلمة هوية انبثقت من قبل المترجمين القدامى من

الـ"هو" لينقلوا المعنى إلى العربية، وبذلك فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح يدل على كون الشيء نفسه[2].

ب. تعريف الهويـة لغة:

تعرف اصطلاحاً بأنها- كما يقول تعريف مبني نسبيا على قول أبي البقاء الكفوي: "ما به الشيء هو هو بوصفه وجودا منفردا متميزا عن غيره " ويفرق الكفوي بين الهوية والماهية فيقول: "ما به الشيء هو هو يسمى ماهية، اذا كان كليا كماهية الإنسان، وهوية اذا كان جزئيا كحقيقة زيد، فالكائن البشري بين المخلوقات الأخرى ذو ماهية تميزه عنها، وزيد بين بني البشر هوية تمايزه عن سواه منهم[3].

وتقسم الهوية إلى نوعين:

- **هوية فردية:** وهي التي تمثل المميزات والخصائص الجسدية التي تميز الإنسان من حيث كونه فردا عن بقية الأفراد سواء داخل مجتمعه أو خارجه ولعل ابرز مثال على ذلك بصمات الأصابع.

- **هوية وطنية أو قومية:** وهي جملة الصفات والخصائص التي تطبع امة من الأمم يشترك فيها مجموع الأفراد المكونون لها، فيتعرفون على بعضهم البعض من خلال هذه الصفات ويتميزون بها كذلك عن غيرهم من أفراد الأمم الأخرى[4].

وتشير الأدبيات والدراسات الأكاديمية المتخصصة في الهوية إلى أن هوية أية امة هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها، وهذا يعني انه لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ. فالأمة وحدها التي تملك الهوية سواء كان جماعة صغيرة أو كبيرة بشرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي وبالتالي لا يستطيع أي فرد أن يستقل خارج الإطار العام للجماعة، أي انه في حاجة إلى هوية

تجمعه مع الآخرين لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية لوحده، كما انه ليس في إمكان أية قوة أن تفرض هوية ما على مجموعة ما من الناس دون اختيار حر وواعي من طرفهم.

كما تعرف الهوية وفقا لتصورين رئيسيين هما:

1. **التصور الستاتيكي أو الماهوي للهوية:** والذي يرى أن الهوية عبارة عن شيء اكتمل وانتهى وتحقق في الماضي، في فترة زمنية معينة أو نموذجا اجتماعياً معين وان الحاضر ماهو إلا محاولة لإدراك هذا المثال وتحقيقه.

- **التصور التاريخي والديناميكي للهوية:** والذي يرى أن الهوية شيء يتم اكتسابه وتعديله باستمرار وليست أبدا ماهية ثابتة، أي أن الهوية قابلة للتحول والتطور، وذلك لان تاريخ أي شعب هو تاريخ متجدد ومليء بالأحداث والتجارب، وعليه فان الهوية الأصلية تتغير باستمرار وتكتسب سمات جديدة، وهذا يعني أنها شيء ديناميكي وهي سلسلة عمليات متتابعة تتحول مع الزمن. ومن وجهة النظر هذه فان الهوية أمر مكتسب يجتهد في الحصول عليه، اذ أنها تضطلع وتشكل بواسطة الناس أنفسهم حيث تنتج ويعاد إنتاجها من خلال التفاعل الاجتماعي[5].

قد نتفق مع وجهة النظر الأخيرة في كثير من جوانبها، إلا انه لابد من التنويه إلى أن للهوية وجهان: الأول ثابت والثاني: متغير، فهناك ثوابت ثقافية يصعب تغييرها وتحتفظ باستمراريتها عبر الأجيال وهي مكتسبة، وهناك عناصر ورموز ثقافية قابلة للتغير و الإضافة والحراك، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحالة الأكثر شيوعا وتكرارا لدى حديثنا عن الهوية الوطنية خاصة هي الثبات والديمومة. اذ انه للهوية الوطنية أو القومية مجموعة من المقومات التي تعد الركائز الأساسية لها بالنسبة للشعوب والأفراد وتميزهم عن غيرهم من الشعوب، وتتمثل في ثلاثية الدين واللغة والثقافة، ففي الجزائر مثلا تتركز الهوية الوطنية على ثلاث مكونات أساسية لا تنفصل عن بعضها البعض، نذكرها في عجالة:

- **اللغة:** وهي اللغة الامازيغية، لغة السكان القدامى والأوائل للجزائر والتي بقوا محافظين عليها إلى يومنا هذا، ويمثلون عددا معتبرا من الكثافة السكانية في المنطقة، اذ نجد القبائل في الشمال، الشاوية شرق البلاد، بني ميزاب شمال الصحراء والتوارق في الجنوب الشرقي(ايليزي وتمنراست) وفي الجنوب الغربي (أجزاء من أدرار)، إضافة إلى اللغة العربية والتي دخلت إلى المنطقة بدخول الإسلام، ووجود هاتين اللغتين يعبر عن وجود عرقين مختلفين لكنهما متعايشين بانسجام وتوافق تام.
- **الدين أو العقيدة:** وهو الدين الإسلامي الذي تدين به الأغلبية العظمى من سكان الجزائر مع وجود مذهبين دينيين هما: المذهب الديني والمذهب الاباضي.
- **الثقافة أو الأعراف والتقاليد:** والسمات الخاصة والمشتركة التي تكونت جراء تفاعل عوامل ومكونات في حقب تاريخية مختلفة، ضمن معطيات تنتج خصوصيات ومميزات وأساليب معينة في الحياة.

ولكي نكون أكثر دقة نذكر انه قد تتقاطع عدة هويات لدى الفرد الواحد، اذ يستطيع الشخص امتلاك تشكيلة واسعة من الهويات الممكنة خاصة لدى الحديث عن الهوية الجماعية، فهناك هوية اجتماعية وهي الشعور بالانتماء إلى العشيرة أو القبيلة(المجتمع الصغير) أو الدولة(المجتمع الكبير) وهوية مدنية أو قانونية وهي الشعور بالمواطنة في الدولة وهوية دينية وهي الشعور بالانتماء إلى الطائفة الدينية[6].

و نلفت النظر إلى انه لا هوية من دون وجود وشعور بذلك الوجود، وهذا يقوم على وعي للذات ينطوي على إدراك لتمايزها عن الآخر ولخصوصيتها في آن واحد، مهما كانت درجة ذلك الإدراك، حتى لو كان أوليا أو بدائيا، ومن البديهي ان الوجود الواعي ينفتح على الآخرين لأنه يحتاج إليهم ولا يظهر تمايزه إلا بالاحتكاك بهم، ولكن حضوره وقوة وجوده كل ذلك يتجلى دائما بوعيه

لخصوصيته-هويته- التي تحفظ له دائما ذلك التمايز الذي يكون عبر تجارب وبيئة وزمن وموروث أجيال من التاريخ والخبرة[7].

اذ يولي ميشكللي خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها أهمية بالغة اذ أنها تعطيها وحدتها ومعناها، وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشاعر المختلفة كالإحساس بالوحدة والتكامل والانتماء والقيمة والاستقلال والشعور بالثقة المبني على أساس من إرادة الوجود، حيث تعرف الهوية على أنها السمات المشتركة التي تميز بها جماعة معينة نفسها وتعتز بها[8].

وتتسم الهوية بحالة من التعقيد في أبعادها وتأثيراتها، وتحديد المؤشرات التي تعمل على تشظيها، وذلك لأنها ترتبط بعدة محددات يصعب التحكم فيها، فمن أهم المحددات التي تجعل سؤال الهوية من أصعب الأسئلة:

1. **التعدد:** فالهويات ذات بنية تعددية، وان أهمية الهوية الواحدة يجب ألا تتقاطع مع الأخريات فيمكن أن يكون الفرد مواطنا فرنسيا من أصول جزائرية ويتحدث اللغة العربية أو الامازيغية، ويعمل في مهنة التدريس...الخ. فالهوية حالة تشكلها عدة عناصر منها: الدين، العرق، اللغة، النسب، التراكم التاريخي للخبرة الجماعية والذاتية.

2. **الاختلاف:** لا تشكل الهوية لدى الذات إلا بافتراض وجود آخر مختلف في عدة أمور، ويوجد هذا الآخر حتى داخل الكيان السياسي الواحد، فإذا تحدثنا عن الجزائر مثلا، تبرز تقاطعات ثقافية واثنية تجعل مفهوم الوطن، باعتباره محددا للهوية السياسية والقانونية، أمرا محل نزاع كاد أن يؤدي إلى أحداث عنف في فترة تاريخية سابقة، فمفهوم الهوية يقوم أساسا، على النظر إلى الفروق بين الذوات، وتحديد المسافات الفاصلة بين الذات والآخر لذلك فانه اذا لم ينظر إلى الاختلافات باعتبارها تنوعا يثري الهوية فإنها ستنقلب إلى تناقضات تقود إلى حالات عنف مدمرة.

السياقية الاجتماعية والتاريخية: تتأسس الهوية على الدوام، في سياق اجتماعي تاريخي محدد وبما أن الزمان يهرب على الدوام، والمكان يعاد تشكيله، والعلاقات تتغير، فان استجابات الناس ومراكمة خبراتهم وتطور وعيهم يؤدي بالضرورة إلى تشعب تصوراتهم ومساراتهم، الأمر الذي يؤدي إلى صراعات بسبب تعزيز المواقع وبسبب الغبن الذي تقود إليه مجموعة من الممارسات الاجتماعية والسياسية والقانونية الخاطئة[9].

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه: لماذا تشهد بعض الدول موجات متكررة من الحروب الأهلية على خلفيات عرقية أو دينية أو سياسية؟ ولماذا يتم إثارة النقاش حول هوية معينة في حقبة زمنية معينة، ويتم غض الطرف عنها في حقب أخرى؟.

هذه التساؤلات تدفعنا للحديث عن الدور الذي تلعبه الدولة في مسالة الهوية، في تشبث مواطنيها بهويتهم أو في ثورتهم ضدها وطلب الانفصال عنها، "فمنذ ظهور نظام الدولة الأمة، باتت من صلاحيات الدولة مهمة رقابة وتسيير كل ما يتصل بالهوية فهي وكيلها المسؤول عن تسييرها، كما أنها اتجهت إلى التصلب في إدارة الهوية، حيث أن الدول القومية، غالبا، لا تعترف إلا بصورة أحادية للهوية، تصفها بالوطنية، وحتى التي تتظاهر بقبول التعددية الثقافية فإنها تحدد ضمنيا خصائص طاردة لغيرها، وحاصرة لمن هم داخلها، لدرجة قد تصل إلى استعمال العنف والقوة والاضطهاد العرقي لكل الجماعات المقصاة والمطرودة من مجال الهوية، وهناك إجراءات متخفية مثل جوازات السفر وبطاقات التعريف، وذكر الدين والمذهب في نفس البلد (كما هو الحال في لبنان) [10].

كما يلاحظ أن الدولة الأمة المعاصرة أكثر تصلبا في تحديد الهوية والانتماء من المجتمعات التقليدية، قديما أو حديثا، فالقبائل تتكون من عشائر متحركة تنقسم وتتجمع بدون حدوث صراعات، كما ينتقل الأفراد والعائلات بين القرى بحرية كبيرة بل أن الأفراد كانوا يهاجرون في العالم الإسلامي من بلد إلى آخر دون أن

يعتبروا من الغرباء الحاملين لهوية وانتماء مختلف يقصيهم من المجموعة التي ينزلون بين ظهرانيها[11].

لكن الدولة لا يمكنها فرض هوية محددة على من لا يرغب في الانتماء لها، فالانتماء هو محصلة تاريخية ثقافية تتجسد عبر مراحل زمنية مختلفة- كما ذكرنا آنفا- وقد يتم الاعتراض على سيرورة الهوية من داخلها أحيانا إما نتيجة لعوامل خارجية تعمل على الضغط على جماعات معينة لأهداف إيديولوجية غير معلنة، وإما نتيجة لتمادي الدولة في المركزية وإهمالها لعرقيات أو أقليات معينة والعمل على التركيز على هوية وطنية تذويبية وتجاهل خصوصية جميع الاثنيات والأقليات المشكلة للدولة، وحقها في الاختلاف والاعتراف بها وبثقافتها ما يؤدي إلى التمرد الرمزي أو المعلن عليها، ويحدث ما يعرف بنزاع الهويات في إطار الدولة الواحدة، فتتمرد مجموعات ضد ما تراه اضطهادا غير محتمل يمارس من قبل فئة مهيمنة، ويتم التعبير عنه بعدم الاعتراف أو التهميش، وغالبا يحدث ذلك في ظل الأنظمة الشمولية، وقد تتفجر أزمة الهوية في ظل الخلافات الدينية و الإثنية المكبوتة لفترات طويلة للتعبير عن نفسها بالعنف ويصل الأمر إلى حد مطالبة بعض المجموعات بالانفصال عن الدولة (مثل حالة السودان التي تم فيها الانفصال فعلا).

ولعل سبب موجات التطهير العرقي والحروب والانقلابات الأهلية المتكررة لبعض الاثنيات على السلطات السياسية لدولها يعود سببه إلى رفضها للهوية التي تريد الدولة فرضها عليها، أو لمعاناتها من التهميش والإقصاء و تعود جذور المشكلة أساسا إلى الحقبة الاستعمارية حيث "وضعت حدود هذه الدول بصورة عشوائية في الدوائر الاستعمارية في أوروبا من دون أن تؤخذ في الاعتبار العناصر والمكونات الاقتصادية والثقافية و الإثنية في أوساط الشعوب المستعمرة، وغدت بعض هذه الدول الجديدة أشبه بلوحات فسيفسائية متعددة الألوان والانتماءات، والأصول الإثنية. ورغم ان الانتماء القومي قد أدى دورا حيويا في تحقيق الاستقلال للمناطق المستعمرة إلا أن الدول التي تمخضت عنها مرحلة ما

بعد الاستعمار قد عانت صعوبات جمة في تنمية الشعور بالانتماء إلى الكيانات الجديدة وتطوير الإحساس بالمواطنة الكاملة بين السكان[12].

كما أن التوحيد الذي لا يعترف بالتنوع يؤدي إلى توترات وصراعات، تفجر نزعات التعصب والانغلاق، والعودة إلى إحياء الخصوصيات الضيقة التي تتغذى من مرجعيات عرقية ودينية مغلقة، لذا لابد من دور ملحوظ للسلطة الممثلة للأمم في اتخاذ مجموعة إجراءات تربوية وقانونية وسياسية تؤدي إلى تحويل التناقضات إلى تباينات تصب في مصلحة الكثرة والتعدد مع الوحدة، دون تهميش لطائفة على حساب أخرى. هذا ويمكن أن تكون الهوية نواة لروابط متينة تساعد على تماسك النسيج الاجتماعي، اذ نجد أن معظم الدول قد ضمنت بنودا في قوانينها ودساتيرها تتناول قضية الهوية.

لكن نعود ونتساءل مرة أخرى: ماهو الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام والاتصال بتكنولوجياتها الحديثة في تعزيز الهوية الوطنية لدى الأفراد وبالتالي مواكبة خطاب الدولة الأمة وتجنب اندلاع حروب وصراعات على خلفيات هوياتية أو لأسباب تتعلق بالهوية؟ أم أن هذه الوسائل هي التي تعمل على إثارة هذه النزعات العرقية والاثنية لدى الأفراد والتنكر لهوياتهم الوطنية؟

2. تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة:

وسيلة الاتصال هي ما تؤدى به الرسالة الاتصالية أو القناة التي تحمل الرموز التي تحتويها الرسالة من المرسل إلى المستقبل. ووسائل الاتصال باعتبارها وسائط ينطبق عليها وصف مارشال ماكلوهان وفحواه أن وسائل الاتصال هذه تعد امتدادات للإنسان بتفعيلها لاداءات حواسه وجوارحه الاتصالية ولكنها باعتبارها وسطا فإنها تتفق أكثر مع مقولته الشهيرة الوسيلة هي الرسالة، أي أن الوسيلة أهم من الرسالة، ومع ذلك فانه يمكن الجمع بين المدلولين اذا اعتبرنا أن طبيعة الوسيلة هي جزء هام من الرسالة ولكنها ليست كل الرسالة بمعنى انه اذا

كان للرسالة ولخصائصها الذاتية أهمية كبرى في التأثير على المستقبل فانه قد يكون لوسيلة الرسالة دور حاسم في ذلك.

1.2 عوامل تطور التكنولوجيا الاتصالية:

يشهد العالم مرحلة جديدة من التطور التكنولوجي الذي تجلى في مناحي الحياة العديدة، متوجا بتفاعل ثورتين أساسيتين هما: ثورة المعلومات والتي تكتسي أهمية بالغة في وقتنا الحاضر اذ اتسع المجال الذي تعمل فيه المعلومات لتشمل كل جوانب الحياة البشرية، وثورة الاتصال الخامسة التي أتاحتها التكنولوجيا في النصف الثاني من القرن العشرين من خلال التطور المذهل لوسائل الاتصال وتعدد أساليبه، وفيما يلي سنلقي الضوء على كلا هذين العاملين كلا على حدى:

أ.ثورة المعلومات: يشير مصطلح ثورة المعلومات إلى اتساع المجال الذي تعمل فيه المعلومات ليشمل كافة مجالات النشاط الإنساني، بحيث تحول إنتاج المعلومات إلى صناعة أصبح لها سوق كبير لا يختلف كثيرا عن أسواق الذهب والبترول وقد يزيد ما ينفق على إنتاج المعلومات على المستوى الدولي عما ينفق على الكثير من السلع الإستراتيجية المعروفة في العالم، حيث تشكل المعلومات في عصرنا الحالي المصدر الأول لخلق الثروة، و تتبوأ المكانة الأولى من حيث الأهمية بين المقومات الأساسية للإنتاج: المادة، الطاقة والمعلومات وليست المعلومات مفيدة فقط في المجال الاقتصادي بل هي مفيدة أيضا في الشؤون الاجتماعية، السياسية، العسكرية والعلمية، فهي أساس المعرفة والمادة الخام للبحوث العلمية والمحك الرئيسي لاتخاذ القرارات الصحيحة وعنصر أساسي من عناصر القوة والسيطرة في عالم متغير يستند على المعرفة في كل شيء ولا يسمح بالارتجال والعشوائية[13].

ب.ثورة الاتصال الخامسة: مر تطور وسائل الاتصال بمراحل وثورات عدة، يرى بعض العلماء أنها في مجملها تمثل خمس ثورات، اذ ظهرت الثورة الأولى لما تمكن الإنسان من الكلام اذ كانت بمثابة أول اكتشاف وابتكار في مجال الاتصال، وثاني ثوراته اكتشاف الكتابة، واقترنت الثورة الثالثة بظهور الطباعة في منتصف القرن

الخامس عشر والتي اعتبرت قفزة مذهلة في مجال الاتصال، وفي النصف الأول من القرن العشرين اكتملت معالم الثورة الرابعة والتي تمكن للإنسان من خلالها من نقل صوته إلى مسافات بعيدة عبر العديد من الاختراعات (كجهاز الفونوغراف-التلفون...) وصولا إلى الثورة الخامسة "والتي تجسدت من خلال شبكات اتصال جديدة ذات مزايا غير مسبوقة في نقل الأنباء و الصور عبر الدول و القارات بطريقة فورية و من أبرز مظاهر هذه التكنولوجيا الاتصالية البيانات الجديدة تلك التي تجلت في مجموعة التقنيات أو الأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الوسطي أو الجمعي، كما يمكن من خلالها جمع المعلومات والبيانات المسموعة أو المكتوبة أو المصورة أو المرسومة أو المسموعة المرئية أو المطبوعة ثم تخزين هذه البيانات والمعلومات ثم استرجاعها في الوقت المناسب ثم عملية نشر هذه المواد الاتصالية أو الوسائل أو المضامين مسموعة أو مسموعة مرئية أو مطبوعة ونقلها من مكان إلى مكان آخر وتبادلها.

ولعل المشهد الصارخ لهذه الثورة هو وضع جميع التقنيات المتوافرة على صعيد الاتصالات والمعلومات في منظومة مدمجة واحدة أو ما اصطلح على تسميته بالطريق السريع للمعلومات والذي يشير إلى تلك التركيبة من"الهاتف والتلفزيون والكمبيوتر والأقمار الصناعية والأطباق اللاقطة والكابلات والموجات الميكروبية...كمنظومة مدمجة واحدة موضوعة بتصرف أفراد المجتمع للإفادة منها في حياتهم العملية والاجتماعية وتعكس هذه التسمية الطريقة التي ستوضع فيها هذه الشبكة الواسعة من التقنيات والخدمات بتصرف الناس، وهي بصورة عامة تتألف من خطوط اتصالية أشبه ما تكون بالعمود الفقري تتفرع منه نقاط ولوج و خروج على مدى الخطوط .

في هذا الإطار، ونتيجة للدفع التكنولوجي من جهة ومتطلبات العصر من جهة ثانية ظهرت ابتكارات عديدة طورت صناعة الاتصالات، ولعل أهمها تكنولوجيا الاتصالات الرقمية التي تعتمد على نقل مواد الاتصال باستخدام الأسلوب الرقمي، وقد تطورت التكنولوجيا الرقمية تبعا للزيادة الكبيرة قي استخدامات الحاسب الالكتروني والألياف الضوئية حيث تتخذ كل الحروف والرموز والأرقام والصور والرسوم والأصوات شكل الأرقام الصفر والواحد ويطلق على كل زوج من الأرقام إسم Bit[14].

2.وظائف وسائل الاتصال: يمكن حصر وظائف وسائل الاتصال فيما يلي[15]:

- **الوظيفة الإخبارية:** والتي تعد من أهم وظائف وسائل الاتصال اذ تطلع هذه الأخيرة بجمع مختلف المعلومات وتخزينها ومعالجتها ونشرها (أنباء، معلومات، صور، آراء، تعليقات...الخ)، كما أن هناك أساليب علمية معينة تستعمل في هذه الوسائل مع الأخبار (تكرار، تجاهل، ترتيب، تنوع، تشويق، تحويل انتباه...الخ) تعتبر من انجح السبل لتغيير الآراء وتوجيه الرأي العام.
- **التربية و التعليم:** اذ أنها توفر رصيد مشترك من المعلومات يزيد من فاعلية تواصل جمهورها وتماسكه الاجتماعي، وذلك بحكم سعة وسرعة انتشارها إلا أن طبيعة دور وسائل الاتصال في هذا المجال تخضع للنظام الاجتماعي السائد الذي يعمل في جميع الحالات على استعمالها في دعم الاتجاهات، تكييفها أو تغييرها عن طريق صناعة الرأي العام.
- **الوظيفة التنموية:** تكملة لهذا الدور تأتي وظيفة وسائل الاتصال التنموية خاصة اقتصاديا، ويتم ذلك أساسا من خلال الإعلانات والبرامج الإرشادية والتوعية وكذا وظيفة التسويقية.
- **وظيفة الترفيه** والإمتاع: وهي وظيفة لا تقل أهمية عن سابقتها، كما أنها تشارك الوظائف الأخرى في غاياتها فهي وظيفة إخبارية، تثقيفية وتعليمية تنموية ولكن في قالب طريف مستتر وغير مباشر تستعمل فيها ساعات الفراغ. ولا بد

من الإشارة هنا إلى أن مفهوم الترفيه هو مفهوم شديد الخطورة اذ تمثل فكرته الأساسية في انه لا يتصل من بعيد أو قريب بالقضايا الجادة للعالم وإنما هو مجرد شغل أو ملء لساعات الفراغ، إذن وظيفة الترفيه ليست ثانوية كما تعتقد العامة من الناس التي تميل إلى إضفاء الحياد أو عدم الضرر على كل التمثيلات الرمزية لوسائل الاتصال التي تظهر نيتها في التأثير على السلوك بل الرغبة في مساعدة الفرد على الهروب من مشكلاته اليومية.

إلا انه حاليا مع التقدم التقني المذهل والتكنولوجيا العالية فان وسائل الاتصال اكتست أهمية ووظائف أخرى، بحيث أنها تغلغلت في الحياة اليومية للناس وأصبحت من الضروريات، بل أكثر من ذلك قد أصبحت عصب الحياة، لدرجة أن المجتمعات الحالية أصبحت تعرف بأنها مجتمعات اتصالية، ما بعد صناعية أو ما بعد حداثية.

3.2 مميزات التكنولوجيات الاتصالية الحديثة:ولعل أهم السمات التي تتصف بها التكنولوجيا الاتصالية الجديدة هي[16].

أ. التفاعلية: وهي احدى الخصائص التجديدية الرئيسة في الاتصال الجديد والتي لا يتيحها الإعلام التقليدي، وتطلق هذه السمة على الدرجة التي يكون فيها للمشاركين في عملية الاتصال تأثيرا على الأدوار ويستطيعون تبادلها ويطلق على ممارستهم الممارسة المتبادلة أو التفاعلية، اذ لم يعد للمتلقي ذلك الدور السلبي المتمثل في مجرد التعرض لمضمون رسالة المرسل بل أصبح بإمكانه تبادل الأدوار مع المرسل، فالاتصال التفاعلي أو التبادلي يتيح للمشترك أو المتلقي اكتساب دور جديد وهو دور نشيط، اذ يعد مسؤولا على بناء جزء هام من مضمون الرسالة ذاتها.

ب. اللاجماهيرية: وتعني أن الرسالة الاتصالية من الممكن أن تتوجه إلى فرد واحد أو إلى جماعة معينة وليس إلى جماهير ضخمة، فطبيعة الوسيلة أحيانا تفرض التلقي الفردي إضافة إلى بروز ظاهرة التخصص. كما ان وسائل

الاتصال الحديثة تتجه إلى جعل خبرات القراءة والاستماع والمشاهدة عبارة عن خبرات معزولة بدلا من الخبرات المشتركة، ذلك ان جماهير وسائل الاتصال تتجه في المستقبل نحو المزيد من التشتت والتناثر، حيث تخاطب هذه الوسائل الأفراد وتلبي حاجاتهم ورغباتهم الذاتية. اذ تفرض طبيعة الوسيلة التلقي الفردي كالحاسب الالكتروني، الهاتف النقال، تكنولوجيا المصغرات، إضافة إلى التخصص المفرط في المحتويات التي توجه إلى طبقة خاصة، كما عملت على ترسيخ مبادئ التفتيت عدة مبتكرات أهمها التلفزيون الكابلي التفاعلي.

ج. اللاتزامنية: وتعني إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها في وقت مناسب للفرد المستخدم ولا تتطلب من كل المشاركين أن يستخدموا النظام نفسه في ذات الوقت .اذ يرجع اختيار وقت عرض مضمون ما للمتلقي وليس للمرسل.

د.قابلية الحركية: تتميز كثير من الوسائل الاتصالية الجديدة بقابلية الحركة اذ يتمكن لمستخدمها نقلها معه بمرونة كبيرة لما يتيح إمكانية الاستفادة منها بنسب عالية، كالآي باد، الهواتف النقالة المزودة بمختلف الخدمات...الخ.

هـ. قابلية التحويل: وهي قدرة وسائل الاتصال على نقل المعلومات من وسيط لأخر كالتقنيات التي يمكنها تحويل رسالة مرئية أو مسموعة إلى رسالة مطبوعة وكذا نظام الترجمة الآلية التي توفرها بعض المواقع الالكترونية.

و. قابلية التوصيل: و تعني إمكانية توصيل الأجهزة الاتصالية بتنويعة كبرى من أجهزة أخرى.

ز. التدويل أو الكونية: إن البيئة الجديدة لوسائل الاتصال هي بيئة عالمية نظرا لما تتسم به أولا من مزايا تجعلها متوافرة من أقصى مكان في الأرض إلى أدناه في نفس الوقت وثانيا ما تمليه عليها متطلبات القرن الواحد والعشرون في شتى المجالات الاقتصادية، السياسية والثقافية.

ح. **الفورية** : وهي ميزة هامة من مزايا تكنولوجيا الاتصال إذ يمكن الوصول إلى المعلومة وفق مرونة هائلة.

ط. **تكنولوجيا الوسائط المتعددة:** التي تعني ذلك الشكل الجديد للوثائق الالكترونية التي تظهر بشكل أساسي في قدرات الحاسب الالكتروني على معالجة النصوص والأصوات والصور ثابتة ومتحركة والتي يمكن أن تتوافر على الأقراص المضغوطة و الانترنت وقد اكتست هذه التقنية أهمية بالغة، حيث أكد عمالقة الإعلام الآلي أمثال: **ألان كاي** مدير مكتب ماكنتوش و**بيل غايتس** مؤسس الميكروسوفت، **وستيف بونس** زعيم شركة **Apple** أن تطور الميلتي ميديا يعتبر حدثا هاما تفوق أهميته اختراع **غوتمبرغ** للطباعة ولعل هذه هي المزايا التي غيرت من وجه الإعلام والاتصال الذي عرفه الإنسان بشكل عام والتكنولوجيا الاتصالية التي صاحبته طيلة النصف الأول من القرن العشرين.

4.2 أهم وسائل الاتصال الحديثة:

سنكتفي هنا بالحديث عن وسيلتين من وسائل الاتصال، وهما التلفزيون والانترنت، باعتبارهما وسيلتين شهدتا نقلة نوعية في التكنولوجيا المستخدمة فيهما، كما أنهما تلعبان دورا معتبرا في عصر الثورة المذهلة لوسائل الاتصال.

أ. **التلفزيون**: يعتبر التلفزيون من ابرز الاكتشافات في القرن العشرين في ميدان الاتصال وذلك للمزايا الشكلية التي يتفوق بها على وسائل الاتصال الأخرى، فهو وسيلة اتصال سمعية بصرية تعتمد أساسا على الصورة، والصورة في التلفزيون ليست كالصورة الفوتوغرافية أو الصورة السينمائية، ومما زاد في الإقبال عليه انه وسيلة معقدة تستخدم لغة الكلمات والصور المرئية والصوت لتوليد الانطباعات وإثارة الأفكار عند الناس.

" إن التلفزيون كوسيلة اتصال جماهيري لم تعد مجرد أداة لنقل الأخبار المصورة، المسجلة أو المباشرة عبر الأقمار الصناعية، بل أصبحت تتميز بقدرة خارقة على الإقناع والتأثير والسيطرة، لقد أصبحت رمز السلطة وعصر الاتصال

فلا توجد سلطة سياسية أو اقتصادية أو دينية لا تحلم بالسيطرة عليها لأنها تمكن ببساطة من هيكلة خيال الفرد والجماعة والتحكم في الرأي العام، فالناس يشاهدون التلفزيون مهما كانت البرامج المذاعة بحكم انه يفرض سيطرته على البشر[17].

" كما أن للتلفزيون مزايا خاصة من خلال تركيزه الاستثنائي على المتع الحسية، في كم واحد من التجربة، الصور المتحركة والأصوات الجذابة والمثيرة مقترنة بالطابع المتكرر لهذه المثيرات على الشاشة والمعززة بالمغريات الإدراكية للأصوات والصور الإنسانية المألوفة، ربما وفر تجربة فريدة في الإمتاع تمنح إشباعا لا يقاوم [18].

لقد كتب يوري برونفنبرنر يقول في هذا الإطار: "مثل ما كان الساحر القديم يفعل، يلقي جهاز التلفزيون بتعويذته السحرية، باعثا الجمود في الحديث والفعل، محولا الأحياء إلى تماثيل صامتة مادام السحر مستمرا، أن الخطر الأول لشاشة التلفزيون لا يكمن إلى حد كبير في السلوك الذي ينتج عنها- على الرغم من وجود خطر هنا أيضا- بقدر ما ينجم عن السلوك الذي يقف حائلا دونه: الأحاديث، الألعاب، المباهج والمجالات الأسرية التي من خلالها يتعلم العقل الكثير وعن طريقها تتكون شخصيته، أن تشغيل جهاز التلفزيون يمكن أن يوقف عملية تحويل الأطفال إلى عائلة[19].

كما أبرزت دراسة كوت لانغ وغلاديس انغ لانغ أن التلفزيون يعكس وجهة فريدة من نوعها فهو يختار المناظر وزوايا الكاميرا بعناية وبحيث يضاعف من إثارة المشاهدين، فالعالم الحقيقي والعالم الذي تقدمه وسائل الإعلام قد يكونا مختلفين إلى حد كبير.

وتعد الصورة في التلفزيون عامل جذب وإثارة نفسية لمتلقي الرسالة الإعلامية، مهما كان نوع الرسالة ومضمونها، "اذ يرى عزي عبد الرحمان أن الإنسان أضحى يتغذى من المرئي وانتقل بذلك إلى الإنسان الموجه مرئيا، أي الذي

يعتمد على التلفزيون بشكل كبير سواء في مجال الأخبار أو المعلومات أو الترفيه، كما أن الاعتماد الكلي على تكنولوجيا المعلومات والاستسلام للآلة وسوء استخدام فكرة العقلانية، قد اسر الإنسان في سجن جديد اسمه " سجن التكنولوجيا[20].

أما استخدام اللون فقد أكدت الدراسات على أنه يزيد من قوة التلفزيون على الإقناع بصورة هائلة، كما تزداد فعاليته في التأثير على المشاهدين بشكل مثير، وذلك لان ما يعرض في التلفزيون الملون له مزايا لا يحققها التلفزيون الأبيض والأسود وهماً.

بفضل هذه الميزات كان التلفزيون ولازال الوسيلة المهيمنة على عقول المستقبلين لا سيما لما أضيفت إليه ميزات جديدة أهمها: البرامج التفاعلية والتي تتيح المجال للمشاهد المشاركة فيها إما عن طريق الحضور في استوديوهات التسجيل والبث أو عن طريق المكالمات الهاتفية (خاصة في برامج الاستشارات أو المسابقات).

"لا بد من التنويه بخصوصية التلفزيون كوسيلة إعلامية فريدة تتمع بمزايا غير متوافرة في وسائل الاتصال كافة، فبالإضافة إلى احتوائها على الصوت والصورة واللون والحركة والزوايا والأبعاد التي تتطلب تفعيل جملة من الحواس الإنسانية التي لم يسبق لها مثيل، استطاع التلفزيون استقطاب خواص وسائل إعلام واتصال عديدة بطريقتين أساسيتين أولهما: أنها جمعت في مزيج فريد وخلاق بين الراديو والسينما والإعلام المطبوع (télétexte) وفنون أخرى تقع في مجال الرسم والنحت والعمارة والهندسة...الخ مجسدة ومهمشة في الوقت نفسه تلك الوسائل الإعلامية والثقافية جميعا.

وثانيهما: أنها استطاعت أن تمنح معظم هذه الوسائل التي ابتلعتها امتدادا وانتشارا مكانيا وزمنيا غير محدود، فالسينما والمسرح اللذان لم يكونا يتجاوزان حدود صالة العرض، أصبحا يتجولان داخل المنازل في أي وقت، بل أصبحا بعد

انتشار التلفزة الفضائية يجتازان حدود المجتمع الواحد، ليجوبا الكرة الأرضية بأسرها[21].

إضافة إلى الميزات السابقة لا يمكن إغفال الدور الذي تلعبه الفضائيات (البث الفضائي) والتي شهدت تطورا غير مسبوق في الوقت الحالي، من ناحية الكم والنوع، اذ زاد عدد هذه الفضائيات وأصبح يتم بثها بأعداد مضاعفةكما أنها غدت أكثر تخصصا من ذي قبل ما يجعل كل قناة تستهدف أو تلبي متطلبات جمهور معين.

كما أن محتويات ومضامين البرامج التي تبثها هذه الأخيرة أصبحت مثارا لجدل واسع فالقنوات الفضائية اليوم تبث كل شيء وأي شيء.

الانترنت: يعد الانترنت، كأشهر وسيلة معلوماتية تفاعلية، عبارة عن شبكة ضخمة تضم بداخلها مجموعة كبيرة من الشبكات المعلوماتية العمومية والخاصة والمتصلة ببعضها البعض، وهي التي تتكون أساسا من: المعدات، البرمجيات التواصلية، والطاقم البشري.

وقد بدأت شبكة الانترنت أيام الحرب الباردة، لكنها كانت حتى أواخر الثمانيات مقصورة على البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) غير أنها سرعان ما انتشرت في الأوساط الجامعية الأكاديمية على صعيد شبكة المعارف التي يمكن الدخول إليها أو استخدام البريد الالكتروني (e-mail). وشاع بعد ذلك انتشار مثل هذه الشبكات في عدد لا حصر له من المواقع الالكترونية ومواقع الخدمة ذات الطابع الثقافي والسياسي والتجاري البحت[22].

ولا شك أن الانترنت اليوم يتيح خدمات متعددة لمستخدميه، من رسائل الكترونية (e-mail)، خدمة البحث: فالانترنت مكتبة ضخمة عالمية وفورية تمكن من الحصول على المعلومة في أي مجال عبر محركات البحث أو المواقع المتخصصة، كما يسهل الانترنت عدة خدمات عن بعد كالتجارة الالكترونية، والتعليم عن بعد، كما يمكن من ربط الاتصالات بأشخاص في أي مكان من العالم عن طريق

خدمة الدردشة (chat)، وهذه الخدمة بالذات شهدت نقلة نوعية مع ابتكار مواقع التواصل الاجتماعي. كما يوفر الانترنت للمستخدم فرص التعبير عن ذاته والتحرر من الحواجز التقليدية للزمان والمكان، حيث ينعزل الفرد عن محيطه الفيزيائي ويعيش ضمن جماعة وهمية داخل جماعة اتصالاتية تحتويه. فعبر هذا الوسيط تزول الحدود بين الحقيقي و الوهمي، بين المادي وغير المادي بين الطبيعي و المصطنع، بين القريب والبعيد، وقوة شبكة الانترنت تكمن في أنها تربط الطاقات الفكرية بالوسائل التكنولوجية وتربط الفرد أينما كان بكل شيء وبالآخرين، والعديد العديد من المزايا التي جعلت من الانترنت اليوم الوسيلة الإعلامية الأسرع والأكثر مرونة بحق، وهذا ما يفسر ارتفاع عدد مستخدميه، "اذ تشير بعض التقديرات إلى أن نسبة انتشار استخدامات الانترنت تتزايد بمعدل 200% كل سنة، وبدرجات متفاوتة في المجتمعات البشرية المعاصرة[23].

فالانترنت اليوم بدأ يحدث تحولات جذرية في حياتنا اليوم، اذ تكاد تضمحل الحدود بين ماهو عالمي ومحلي، فعلى الرغم من إتاحة الانترنت سبل الاتصال والتعارف بين بني البشر في أقطار العالم المترامية إلا انه يهدد بتدهور العلاقات والقيم الاجتماعية وتدمير الجماعات الإنسانية ذلك انه يعزز من عزلة الإنسان الاجتماعية.

وربما تأثير هذه الوسيلة، الهامة والمهمة، اليوم على هويات الأفراد والجماعات كونها لا تخضع للرقابة الحكومية في اغلب الأحيان، عكس الوسائل الأخرى والتي ظلت تنشط في حدود وطنية ضيقة وفي ظل رقابة حكومية، ذلك انه يصعب فرض رقابة من أي نوع على هذه الوسيلة فمعظم البرمجيات التي تصمم لهذا الشأن يتم اختراقها وتجاوزها بأخرى.

5.2. الهوية ووسائل الإعلام والاتصال الحديثة:

أثار انتشار وتطور وسائل الاتصال في القرن العشرين العديد من الآراء التي اختلفت وتباينت حول المضمون الذي تبثه هذه الوسائل بين مؤيد ومعارض،

فهناك من العلماء من منح للوسيلة دورا محوريا في عملية الاتصال، اذ اعتبر مارشال ماكلوهان - أستاذ الإعلام السوسيولوجي-أن الوسيلة التي نحصل أو نتبادل عن طريقها المعلومات قد تؤثر في تفكير الأفراد وسلوكهم أكثر من بعض محتويات الرسالة نفسها، فالوسيلة ليست شيئا محايدا أو سلبيا، ولا يمكن اعتبارها كذلك، أنها تؤثر تأثيرا متفاوتا لدى المعرضين لها بل حتى لدى مستعمليها، وبشكل عام هناك طريقتان للنظر إلى وسائل الاتصال: أولاً: من حيث أنها وسائل لنشر المعلومات والتعليم والتنمية والترفيه وتوجيه الرأي العام، ففي هذه الحالة يتم تركيز الاهتمام على مضمونها وطريقة استخدامها والهدف من هذا الاستخدام.

ثانياً: من حيث أنها جزء من سلسلة التطور التكنولوجي المطرد، ويتم الاهتمام في هذه الحالة بتأثيرها كوسيلة تقنية بصرف النظر عن مضمونها[24].

وتقوم الفكرة الرئيسية لماكلوهان صاحب المقولة الشهيرة "الوسيلة هي الرسالة" على أساس أن الرسالة تتأثر بنوع الوسيلة المستعملة، فالخبر في الجريدة يختلف عنه في التلفزة ويختلف عنه في الانترنت. كما أن الوسيلة التي تنقل المضمون الإعلامي تؤثر في المستقبلين تأثيرا لا شعوريا يغير سلوكهم فضلا عن انه لكل وسيلة جمهور من الناس يفوق حبه لها اهتمامه بمضمونها.

أما رايت ميلز من جهته، يرى أن وسائل الاتصال الجماهيري ظاهرة فعالة تمنح الإنسان شعورا بالانتماء والروح المعنوية العالية من خلال الهروب المؤقت من الواقع الشاق ويؤكد ميلز أن هذه الوسائل تثري التجارب الإنسانية فالناس صاروا يستقون اغلب مفاهيمهم وخبراتهم من البرامج التي تبثها وسائل الإعلام وليس من شظايا تجاربهم الشخصية وهذا الاختلاف في مصدر اكتساب التجارب المعرفية لدى الإنسان المعاصر أصبح له صدى في لغته اليومية... فاغلب الناس يشاركون بذات الاهتمامات ويشاهدون ذات البرامج ويتأثرون بأداء ذات الابطال[25].

ويرى دانيال بال بأن وسائل الإعلام قد قدمت خدمة كبيرة للمجتمعات الحديثة أو المتعددة الأعراق والأجناس، اذ أنها وحدت قيمهم وقربت معتقداتهم ومواقفهم، فكانت بمثابة بوتقة صهر، كما اعتبر بال أول من أكد على وظيفة الدمج الثقافي، والذي يرى أن المجتمع الأمريكي لم يتمكن من أن يصبح مجتمعا قوميا إلا مع بداية القرن العشرين وذلك بفضل وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون[26].

لا شك أن موقف هؤلاء العلماء المغالي في تمجيده لتكنولوجيا الاتصال إنما هو ناتج من انبهارهم بالإمكانيات التي تحظى بها هذه الوسائل، والتركيز على ايجابياتها مع إغفال لما يمكن أن تسببه هذه الأخيرة من انعكاسات سلبية في شتى المجالات سيما الاجتماعية والثقافية منها، فإذا كانت ثورة الاتصال والمعلومات قادرة على المساهمة في التقريب بين بني البشر عبر زيادة معرفتهم بما يدور في أقاليم وثقافات أخرى، إلا أنها قد تكون عامل طمس وتحطيم لثقافات الدول المغلوبة ماديا وتكنولوجيا، لصالح المتفوقة منها في تلك المجالات. فثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال الحديثة-مثلها مثل أي ظاهرة تتصل بالإنسان-لا يمكن النظر لها على أنها حدثا محايدا خاليا من قيم الثقافة التي أنجبته (وهي الثقافة الغربية) ويصدق هذا على نوع المعلومات التي يتم انتقالها ومعايير انتقائها وكيفية توظيفها، اذ قد توظف للتشكيك حول هوية ثقافية أو وطنية ما، وجدوى التمسك بها في ظل متطلبات التقدم، وقد تؤدي إلى ثقة مبالغ فيها في قيم الثقافة الغربية ومدى إشباعها لاحتياجات الإنسان.

ويصف دوبريه القرن الواحد والعشرين بأنه قرن الوسائط التكنو-ثقافية، فهو يرى بان الاختراعات التقنية وان كانت تشكل منظومة إلا أن هذه المنظومة لا تقتصر على كونها تقنية إنما تقنية ثقافية، من هنا فان الهيمنة الفكرية والإيديولوجية لا تمارس فقط بواسطة محتوى الرسائل وإنما بواسطة التقنية التي تحملها وتبثها

وترتب أشكال فرضها وتلقينها فالمعنى الذي تحمله الرسالة وانعكاساتها الاجتماعية يختلف باختلاف الوسيط الحامل لها[27].

لقد أنذرت وأثارت الكتابات الإعلامية في الغرب نفسه الأثر والتأثير اللذين تحدثهما هذه القنوات الاتصالية على مؤسسات وكيان المجتمع الغربي، ويتجلى هذا الأثر في:

أ. خلق ثقافة جماهيرية، تعزز الامتثالية والنمطية وتدفع جانبا التنوع والتغاير وأشكال الإبداع والابتكار، وتفرز هذه الثقافة فردا سلبيا وسليبا لا يشارك في إخراج ما يستهلكه ثقافيا إلا بالقدر اليسير.

ب. تعزيز النمط الاستهلاكي المادي في الحياة الاجتماعية، وبتعبير آخر، إيجاد مجتمع استهلاكي يحافظ ويساعد على ترويج البضاعة التجارية الرأسمالية.

ج. تسويق ثقافة رديئة تساهم في النيل من المستوى الثقافي وفي تدهور الذوق الفني والجمالي في المجتمع[28].

أن التساؤل الذي يطرح في هذه الحالة هوانه اذا كان الحال كذلك بالنسبة إلى المجتمع الغربي الذي أنتج هذه الوسائل الاتصالية، فكيف هو الحال عندنا نحن العرب.

وتكمن قوة وسائل الاتصال في عصرنا الراهن، في ضخامة الإمكانيات التي تمتلكها والتي بها تستطيع أن تصل إلى كل بقاع الأرض، مؤسسة قواسم مشتركة لقوالب جديدة من التفكير ونسق جديد من القيم وأشكال معينة من السلوك، لقد أصبحت أهم الصور التي نرسمها في عقولنا واهم الأفكار التي نشكلها عن الناس و الاشياء والأنظمة، والمجتمعات مأخوذة من تكنولوجيا الاتصالات الحديثة. فقد اتهم المفكر شاكوتين وسائل الاتصال الحديثة في كتابه "اغتصاب الجماهير" بالسطو على أفكار الناس وعواطفهم وغسل أدمغتهم وحشوها

بالأفكار التي تتناسب مع إيديولوجيتها ومبادئها... إنها تتوجه إلى الغرائز وتدغدغ العواطف وتؤثر في المشاعر[29].

كما افرد هربرت شيلر فصلا كاملا من كتابه "المتلاعبون بالعقول" تعرض فيه بإسهاب وتحليل مركز إلى التقنيات والخدع التي يستعملها القائمون على وسائل الإعلام الغربية في تضليل الشعوب والجماهير والتي يكون هدفها النهائي امتصاص طاقة رد الفعل الإنساني وتهميد العقول وتحجيم النشاط العقلي وتسكين الوعي النقدي للأفراد، مما يولد أفراد سلبيين غير قادرين على القيام برجع الصدى الطبيعي، هذه السلبية حسب هربرت شيلر تنطوي على بعد بدني، وبعد ثقافي فكري، يجري استغلالها ببراعة من خلال تقنية وتوجهات أجهزة السيطرة على العقول[30].

ومع تراجع العلاقات الاجتماعية بسبب ضغط الحياة وانشغال الناس بالأمور الحياتية، وجد الإنسان في وسائل الإعلام الحديثة الحلقة التي تربطه بالمجتمع وتشده إليه، فيتحول بانخراطه الوهمي بأخبار المجتمع وأحداثه ووقائعه عن العلاقات الفعلية التي فقدها.

كما لا ننسى بعدا آخر من أبعاد ثورة الإعلام والاتصال الحديثة ألا وهو تعاظم دور الشركات المتعددة الجنسيات بفضل الأرباح المغرية التي يؤمنها قطاع الاتصالات والمعلومات وسعي هذه الشركات إلى الاحتكار والتركيز والاندماج، ولا تزال فكرة الدمج المستمرة في التنفيذ حيث أن حركة الإندماج المتسارعة بين الشركات متعددة الجنسيات أخذت في التنافس ويسيطر عليها ما يسمى بملوك الإعلام والإتصال والترفيه.

وإذا استعرضنا أهم المؤسسات الإعلامية في العالم يتبين لنا ان الدول الرأسمالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تمثل ثلث العالم إلا أنها تحتكر أكثر من 80% من الصحف اليومية والكتب، وما يقارب هذه النسبة من التوزيع وأجهزة التواصل والإعلام الأخرى، كما انه تمتلك وتسيطر على

95% من التكنولوجيا من ضمنها تكنولوجيا الإعلام، وبالنسبة إلى الشركات الإعلامية العالمية وهي المؤسسات التي تشرف على أكثر من وسيلة إعلامية من صحف وإذاعة وتلفزة فهي أيضا تنتمي إلى الرأسمالية الكبرى، نذكر منها على سبيل المثال مؤسسة الBBC التي تأسست عام 1922 ويقدر عدد موظفيها ب22 ألف موظف وقيمة مبيعاتها2.25 مليار دولار سنويا، وتشرف على محطات البث الإذاعي في بريطانيا وعلى جزء الأكبر من البث التلفزيوني وتبث برامجها ب38 لغة وهي مع سائر الإذاعات الأجنبية تعتمد اللغة العربية عندما تتوجه إلى الجمهور العربي[31].

كما ساهمت الاندماجات -التي ذكرناها آنفا- إلى ظهور خمس شركات عملاقة تعرف باللاعبين الخمس الكبار وهي: والت ديزني، وبرتلسمان، وفوتايم وارنر، وفاكم، وشركات الأخبار وتعمل هذه الشركات وفق آليات السوق والإنتاج الضخم لكي ينشر ويستهلك على نطاق واسع بين اكبر عدد من المستهلكين، وبالتالي تخفيض تكلفة الإنتاج وقد لا تراعي هذه الشركات القيمة الفكرية أو الثقافية للمضامين والبرامج المنتجة لكنها تركز على الشكل والجاذبية.

أن الدول الرأسمالية تنفق أموالا طائلة على الأبحاث العلمية وتطوير تكنولوجيا الإعلام مما يكشف عن النوايا والأهداف البعيدة وهي تعميم وهيمنة وسيادة إيديولوجيا الأقوى لاستتباع إرادة الأضعف، كما أن الهيمنة الفكرية والإيديولوجية لا تمارس فقط بواسطة محتوى الرسائل وإنما بواسطة التقنية التي تحملها وتبثها وترتب أشكال فرضها وتلقينها.

كما لا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن ما يحرك كبريات الشبكات الإعلامية هو المال قبل أي شيء، فالهدف الحقيقي لهذه الشبكات هو تحقيق الربح أكثر من الإقناع ولما كانت الدول الغربية الصناعية هي التي تمتلك تقنيات الاتصال الحديثة وكبريات الصحف ووكالات الأنباء فإنها أصبحت تسيطر على عملية تدفق الأخبار والمعلومات من طرف واحد، ان هذه الدول ومن خلال هذه الوسائل

الاتصالية المتطورة تهدف إلى إنتاج -على حد تعبير هربرت ماركيوز-إنسان ذو بعد واحد غائب ليس لديه الحس النقدي، لا يفرق بين الحاجات الضرورية والكاذبة وكل شيء عنده قابل للتشويه.

وإذا كانت هوية الفرد في الماضي تتأثر بصورة أساسية بانتمائه إلى جماعات عريضة أو ترتبط بعوامل ذات صلة بالطبقة أو الجنسية أو "بالمكان" بشكل عام بما فيه حدود الدولة التي ينتمي إليها، فإن هذه الهوية الآن قد غدت اقل استقرارا وتعددت فيها الجوانب والأبعاد، فالأفراد أصبحوا أكثر حراكا من الوجهتين الاجتماعية والجغرافية، فإذا كانت وسائل الإعلام والاتصال التقليدية تخضع للرقابة والوصاية الحكومية وللضبط والردع (سواء ما تعلق بالصحف، الراديو، التلفزيون...)-حفاظاً على سيادة الدولة واستقرارها وأمنها- اذ استطاعت الحكومات بفعل تلك الرقابة والهيمنة على الإعلام وما يبث فيه، إحكام قبضتها على شعوبها وصهرها في بوتقة واحدة في ظل الدولة الأمة فان وسائل الاتصال الحديثة تمكنت من الإفلات من هذه السيطرة (خاصة ما تعلق بالانترنت)، وبالتالي صار أفراد المجتمع يحضون بحريات أوسع في هذا الإطار.

فضلا عن كون التكنولوجيا الاتصالية تزيد من ضعف الشعور بالانتماء المرتبط بالمحلي والوطني، وتعمل على تقويضه وتنسج هويات غير متعلقة بالحيز المكاني، وتقلل من شعور الانتماء إليه. فالتحولات التكنولوجية قد غيرت جذرياً حدود المكان وما يتعلق به من قضايا اجتماعية وظواهر ونظم فالإجراءات الحالية لعولمة الإعلام الإلكتروني تقوم على الأسس نفسها، وهو تقديم أكبر قدر ممكن من الجماعات الثقافية العالمية على حساب تلك المحلية. إننا أمام تكنولوجيا تعمل على تغيير العديد من المفاهيم، اذ مع هذا التطور المذهل تغير شكل الاتصال و ردمت الفواصل بين الاتصال الشخصي والجماهيري وطرح شكل جديد يجمع أشكال الاتصال وأنماطه في شكل جديد وهو الاتصال التفاعلي أو التبادلي. فهل بفعله يتم إفراز شكل جديدة للهوية؟ هوية القرية العالم أو العالم القرية التي تنبئ باضمحلال

الهويات الوطنية وتشكيل هويات متخطية للحدود الوطنية، هويات أفراد ينتمون إلى فضاءات رمزية وجماعات مشتتة ومجزئة؟.

بعد عرضنا للإمكانات الواسعة التي تمتلكها وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، وتأثيراتها على هويات مستخدميها إلا انه على الرغم من كل ذلك فان تحقق نموذج الهوية المتخطية للحدود الوطنية فعلاً وواقعياً، يثير جدلاً واسعاً كونه لا يتوفر على العناصر الضرورية والأساسية للهوية: كالشعور بالانتماء، الوعي بهذا الشعور، القواسم المشتركة كالتاريخ واللغة...الخ فضلا عن انه من اهم مزايا وسائل الاتصال الحديثة التفتيت والتشتيت، عكس ما تقتضيه الهوية من توحيد تجميع، مايجعل مسالة الهوية محل نقاش مستمر.

الخاتمــة:

بعد عرضنا للعلاقة الجدلية بين وسائل الاتصال الحديثة والهوية الوطنية، اتضح أن هذه الأخيرة بدأت تتآكل- أو هي على وشك ذلك- نتيجة للاكتساح الواسع لتلك الوسائل لجميع مناحي الحياة، مفسحة المجال أمام هوية لم تكتمل معالمها بعد، هوية لا تعترف بالحدود والحواجز أياً كان نوعها، سياسية كانت أم ثقافية. وفي ظل الغموض القائم حول النموذج المستقبلي للهوية والذي تفرزه وتغذيه تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة، تبدي الدول الغربية- المنتجة والداعمة لهذه التكنولوجيا- تخوفا كبيرا، فكيف هو الحال بالنسبة إلى الدول العربية؟

ان ما تحتاجه هذه الدول حقاً هو الولوج إلى ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات لا كمستهلكين وحسب بل كأعضاء مساهمين وفاعلين، وذلك لا يتأتى إلا بانفتاح النخب السياسية الحاكمة وصناع القرار في الدول العربية، على التكنولوجيات الحديثة للاتصال من اجل إشباع حاجات الناس الثقافية المتزايدة كونها تتعرض لإغراءات السوق الثقافي العالمي، فالمواطن العربي- والجزائري بشكل خاص- يريد أن يرى نفسه في قنوات وطنه ومن خلال الإعلام الذي يخاطبه، وبالتالي لا بد أن تبرز جميع العرقيات والأطياف المكونة للمجتمع في هذا الإعلام ليس بغرض التفرقة بينها بل بالعكس بغرض جمعها وتوحيدها على أسس وثوابت وطنية واضحة، وهذه مهمة لابد أن يعمل على تجسيدها الإعلام الخاص بالموازاة مع الإعلام الحكومي.

ونلفت الانتباه إلى أن هذه الوسائل الاتصالية مثلما يمكن استخدامها لدحض أو تهديد الهويات الوطنية والقومية، يمكن استخدامها كذلك من اجل الحفاظ على هاته الهويات، اذا تمكنت الدول العربية من وضع سياسة محددة وممنهجة تكون على وعي بالاستخدام الأمثل لهذه الوسائل لتعزيز هذا المسعى.

❖ **هوامش البحث**

(1) علي عقلة عرسان: **الشخصية الثقافية العربية: الهوية والغزو**، http//www.reefnet.gov.sybooksprojectfikr14، 05/ 01/ 2011.

(2) هويدا صلاح الدين عتباني: **الهوية والتعدد الاثني-دراسة مفاهيمية مع إشارة للنموذج السوداني**، السودان: مجلة مركز التنوير المعرفي، العدد09، 2010، ص 10.

(3) علي عقلة عرسان، نفس المرجع.

(4) سعاد وولد جاب الله: **الهوية الثقافية العربية من خلال الصحف الالكترونية**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 2005/ 2006، ص 135.

(5) سعاد ولد جاب الله، مرجع سبق ذكره، ص 137.

(6) الطيب عبد الجليل حسين محمود: **إشكالية الهوية وبناء الدولة الوطنية المعاصرة، مركب الهوية وهجنة الثقافات وتلاقي المصالح ووحدة المصير (رؤية تحليلية بدراسة حالة مجتمع ولاية القضارف)**، أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية، غير منشورة، السودان، 2008 ، ص12.

(7) علي عقلة عرسان، مرجع سبق ذكره.

(8) سعاد ولد جاب الله، مرجع سبق ذكره ، ص 136.

(9) عبد العليم محمد إسماعيل علي، **الهوية الثقافية**،2043 ?http://www.swmsa.net/articles.php، 02/ 09/ 2012-بتصرف-

(10) العربي ولد خليفة: **المسالة الثقافية وقضايا الهوية واللسان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2003، ص116.

(11) المرجع السابق، ص 117.

(12) أنتوني غدنز:**علم الاجتماع**، ترجمة: فايز الصياغ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص ص492-493.

(13) سعاد ولد جاب الله، نفس المرجع، ص ص 36،37.

(14) المرجع السابق، ص 42، ص44.

(15) فضيل دليو، **الاتصال: مفاهيمه، نظرياته ووسائله**، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003، ص ص، 75، 76.

(16) سعاد ولد جاب الله، نفس المرجع، ص ص 45، 46- بتصرف-

(17) فضيل دليو، نفس المرجع، ص151.

(18) جمال العيفة، **الثقافة الجماهيرية**، الجزائر: منشورات جامعة باجي مختار–عنابة، 2003، ص62.

(19) جمال العيفة، مرجع سبق ذكره ، ص126.

(20) المرجع السابق ، ص128.

(21) فريال مهنا، **علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية**، دمشق: دار الفكر المعاصر، 2002، ط1، ص ص 24-25.

(22) انتوني غدنز، مرجع سبق ذكره ، ص522.

(23) نفس المرجع، ص523.

(24) فضيل دليو، مرجع سبق ذكره ، ص ص60-61.

(25) جمال العيفة، مرجع سبق ذكره ، ص 66.

(26) المرجع السابق، ص70.

(27) فاطمة بدوي، **تكنولوجيا الاتصالات والايدولوجيا الخفية**،http://www.lebarmy.gov.lb/article.=1188، 2012 /07 /11.

(28) عزي عبد الرحمان: **ما بعد البنيوية ومعالم الثقافة العربية**، في الطاهر لبيب وآخرون، **الثقافة والمثقف في الوطن العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص ص224-225.

(29) فاطمة بدوي، مرجع سبق ذكره.

(30) جمال العيفة، مرجع سبق ذكره ، ص124.

(31) فاطمة بدوي، مرجع سبق ذكره.